رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس
Rédacteur en chef et
directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
ص.ب. : ٤١٢٣ ـ تلفون ٢٣٢٨٣٢ ـ بيروت
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH - LIBAN - B.P. 4123
Tél. 232832

العدد العاشر
ت١ (اكتوبر) ١٩٦١
السنة التاسعة
No. 10 Oct. 1961
9ème année

الديموقراطية وسيلة لتحقيق أهداف القومية العربية

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

لا تتخذ أي فكرة قومية معناها السليم ، الا اذا انعقدت الصلة العميقة بينها وبين الفكرة الانسانية . ويظل هدف الحياة القومية الاول الوصول الى تفتيح الحياة الانسانية لدى المواطن على اوسع مدى ممكن . وقوام النظرة القومية الايمان بان الاطار الامثل لتفتح الانسان كانسان هو اطار تربته القومية وهوائه القومي . ففي هذا الاطار يستطيع الفرد ان يزرو ويستخرج كامل امكانياته وطاقاته . وفي هوائه ييسر له ان يرقى الى اسمى مراتب الازدهار النفسي .

والافكار القومية السليمة عبر التاريخ كانت مخلصة دوما لهذا المنزع . ونشأة الحركات القومية في العالم في بداية القرن التاسع عشر ، تنبيء عن عمق هذه الصلة التي تقوم بين النزعة القومية والنزعة الانسانية . اذ ظهرت الافكار القومية كما نعلم لدى الشعوب المضطهدة والمجزأة المقطعة الاوصال ، وكان هدفها تحرير الشعوب واقرار حقها في تقرير مصيرها وخلق عالم متآخ متآزر لاتطغى فيه امة على امة ، وتحقيق وجود الانسان الكامل عن طريق تحريره من طغيان اخيه الانسان . هكذا كان شأن الحركة القومية الايطالية منذ بداية نشأتها في اوائل القرن التاسع عشر ، وهكذا كان شأن الحركة القومية الالمانية بعد حروب الثلاثين ، وشأن القومية السلافية لدى السلاف الغربيين والجنوبيين . لقد ثارت هذه الحركات جميعها لدى امم مضطهدة مهددة خاضعة للسيطرة الاجنبية ، وكان همها ان تناضل من اجل حق الانسان وحريته .

ولم تجانب الحركات القومية هذا الطابع الانساني ، الا عندما انحرفت عن اهدافها الاصيلة واستغلت من اجل العدوان والسيطرة ، على نحو ماحدث في المانيا النازية وايطاليا الفاشية . لقد اتخذت القومية اذ ذاك شعارا لتبرير العنف والعداء ، ووسيلة لسيطرة امة على غيرها من الامم . وبهذا فقدت معناها الاصلي ، وغدت ابعد ماتكون عن الاهداف الحقيقية للحياة القومية ، نعني تحرير الانسان وتفتيحه ضمن تربته القومية ، والعمل على تحقيق التوازن بين القوميات المختلفة من اجل سعادة الانسان والارتقاء بانسانيته .

ولا نهدف هنا الى الحديث عن عمق الصلة التي تصل الفكرة القومية بالفكرة الانسانية . وجل مانريد ان نؤكده ان النزعة القومية تفقد معناها اذا لم تكن الاطار الطبيعي لتحقيق تفتح الانسان الكامل .

ـ ٢ ـ

والتذكير بهذه الحقيقة يمهد امامنا السبيل لبيان مدى الارتباط بين القومية العربية وبين الديمقراطية . فالقومية تهدف الى تفتيح الوجود الانساني للفرد وافساح المجال امام كامل طاقاته كيما تعطي وتزدهر وتنشر الخير والعطاء للامة وللانسانية . وهي اذ تضع نصب عينيها مثل هذا الهدف الانساني الغني ،تلتقي التقاء طبيعيا بالديمقراطية كوسيلة لتحقيق اهدافها . فالديمقراطية ان كانت تعني شيئا، فهي تعني انها الوسيلة المثلى لتحرير الانسان وتيسير تكامله الدائم وتفتيق قيمه الانسانية الاصيلة . ومهما تختلف التعريفات التي تقدم للديمقراطية يظل من الصحيح دوما وابدا ان جوهرها احترام الانسان كغاية في ذاته، واتخاذه هدفا لا وسيلة . وقد وكدت النزعات الحديثة في الديمقراطية اليوم ان العنصر الاساسي في الديمقراطية هو احترام الشخصية الانسانية . وهذا الاحترام ليس احتراما سلبيا فحسب ، قوامه عدم النيل منها وعدم استغلالها واستثمارها ، وانما هو فوق هذا وقبل هذا احترام ايجابي قوامه تحقيق الظروف المثلى لتفتحها وازدهارها والوصول بها الى كامل عطائها . ومثل هذه الظروف الميسرة لتفتح الشخصية الانسانية هي بالتعريف

ظروف الحياة القومية التي يعمل فيها المواطنون من اجل سعادتهم المشتركة ، ومن أجل بناء مجتمع تسوده العدالة والمساواة والفرص المتكافئة ، ولا يطغى فيه انسان على انسان ، سواء ضمن حدود الدولة القومية او خارجها .

وهذا الارتباط العميق بين القومية والديمقراطية ، يبين لنا منذ البداية قدسية الديمقراطية ، كما يبين لنا في الوقت نفسه حدود هذه الديمقراطية . فهو يشير منذ بدء الطريق الى ان الديمقراطية لاتتخذ معناها الا كوسيلة لتحقيق الوجود القومي ، وان تفتيح الانسان عن طريقها مرتبط اعمق الارتباط باهداف التعاون القومي والعمل لمصلحة الحياة القومية .

على انه يبين لنا أيضا حدود الفكرة القومية ، اذ يجعل هذه الفكرة لصالح الانسان كانسان ، وان يجنبنا الوقوع في خطأ الاستمساك بالشكل وبسيان الهدف ، بعني حصر اتخاذ القومية مبررا للعدوان على الانسان او اضطهاده او تقييد حريته وتفتحه ، سواء ضمن الاطار القومي او خارجه . ذلك ان الفكرة القومية ، حين ترتبط بالاسلوب الديمقراطي تظل مخلصة لهدفها الاصلي ، نعني الانسان ، ولا تنحرف لتتخذ حجة لتبرير العنف او الاقتسار ، ودريعة لاضطهاد الانسان .

ان البدهية الاولى التي تثيرا لتأسي ، هي ان المباديء التي يضعها الانسان يضعها من اجل الانسان وفي سبيل اكتمال رقيه وتقدمه وبلوغه المراتب الحقة من الوعي الروحي . ولهذا فمن غير الجائز ، مهما تكن المبررات ، ان تتخذ هذه المباديء ذريعة لاضطهاد الانسان ، وحجة لتضييق عليه ، وامتهان شخصيته الانسانية . ولهذا كان الربط بين الفكرة القومية والفكرة الديمقراطية ، حاميا لكليتهما من الانحراف ومن مزالق طالما القتاها في حياة البشر . انه يحمي الفكرة القومية من ان تصطنع من اجل العدوان ومن اجل اضطهاد الانسان ، داخل الدولة القومية وخارجها . كما يحمي الفكرة الديمقراطية من ان تغدو طارا فارغا ومبدأ عديم المحتوى ، ومطلقا تستباح من اجله حتى الفوضى ، وحتى استغلال الانسان كانسان .

— ٣ —

ان آفة المباديء آفتان كبريان . آفة الاطلاق ، وآفة النظرة الواحدية .

اما الاطلاق فهو الذي يقلب الوسيلة الى غاية وهدف ، هو الذي يجعل من المبدأ صورة فارغة عديمة المحتوى ، وحجة وعزاء وتبريرا . انه هو الذي يجعل من مبدأ القومية مثلا مبدأ يستبيح الانسان وحرياته وكرامته ، حين يغدو مثل هذا المبدأ حذاء صينيا قاسيا ، يصطنع من أجل تبرير كل شيء ، لا من اجل غاياته القومية والانسانية الاصيلة . وهو الذي يجعل من مبدأ الديمقراطية شعارا فارغا ، يستخدم في سبيل الحق كما يستخدم في سبيل الباطل ، ويجند حتى للقضاء على الديمقراطية باسم الديمقراطية .

ان المباديء المتصلة بحياة الامم لاتتخذ معناها الا ضمن جملة البنية الاجتماعية والقومية . وتطبيق أي مبدأ ينبغي ان يكون في نهاية الامر نتيجة التفاعل بين المبدأ كمثل اعلى وبين جملة الظروف الواقعية التي توجد فيها امة من الامم . ومن شرارة هذا اللقاء بين المبدأ كمثل اعلى وبين الواقع يولد السلوك السليم والتطبيق الخصيب .

واما آفة النظرة الواحدية ، فهي التي تؤدي الى تفسير الامور تفسيرا وحيد النظرة ، يقيم وزنا للعوامل الخفية التي تتدخل في احداثها . والنظرة الواحدية وليدة تفكير خاطيء عاش ردحا من الزمن ، ورافق ظهور العلم الحديث ، ثم مالبث تطور العلم حتى دحضه . وقوام هذا التفكير الخاطيء نظرة الى العلية والسببية ، تحاول ان تكشف بين جملة الاسباب التي تحدث ظاهرة معينة ، سواء كانت مادية او اجتماعية ، عن سبب اول نعتبره هو السبب الاصيل ونعتبر الظواهر الاخرى نتيجة له ومنحققا له ، وهذه النظرة الخاطئة اتخذت اسوأ نتائجها عندما طبقت على الظواهر الاجتماعية . فها هنا حاول عدد من الباحثين كما نعلم ان يكشفوا عن عامل أساسي حاسم ، هو المسؤول عن سير الحياة الاجتماعية ، وما سواه تابع وملحق ، على نحو مافعلت النظرية الماركسية مثلا حين عزلت العامل الاقتصادي وعدته السبب الاب لكل عناصر الحياة الاجتماعية وحين اعتبرت ماسواه من مظاهر الحياة بمثابة ذيل له او مركب ثانوي من مركباته . ومثل ذلك فعلت النظريات التي حاولت ان ترد الظواهر الاجتماعية الى عامل البيئة او عامل العرق .

ولقد ولدت هذه النظرة مآسي كثيرة في فهم الحياة الانسانية ، بل في السلوك السياسي والمذاهب السياسية . وجاء العلم الحديث فاثبت خطأها في ميدان علوم المادة الجامدة . غير ان الاخذ بها في ميدان العلوم الاجتماعية ظل مستمرا الى حد بعيد . فقد اثبت العلم الحديث خطأ التفسيرات التي ترد الظواهر المادية الى قانون وحيد او سبب وحيد تتحلق حوله سائر الظواهر ، وبين ان من الواجب ان يحدث انقلاب في ذهننا للاشياء ، عن طريق التفكير بوساطة مبدأ التفاعل المشترك بين العناصر المكونة لها . فالحادثة المادية لاتحدث بنتيجة سبب وحيد ، وانما تحدث بنتيجة تفاعل جملة من الاسباب ، لكل منها وزنه وشأنه ، وليس بينها سبب أساسي واخر ملحق . وهكذا غدا الاحتمال والتعدد ميزتي العلم في عصرنا ، وحل محل التفسير الواحدي للاشياء ، تفسير كلي ينظر الى الاحداث على انها مترابطة متآخذة ، ويستبعد القول بوجود قوة مسببة فذة وشاملة ، هي مفتاح كل شيء .

غير ان هذه النظرة التي اشاعها العلم بعد تطوره ، في ميدان الظواهر المادية لم تنتقل بيسر الى ميدان الظواهر الاجتماعية ، وظل التفسير الواحدي ، التفسير بالسبب الوحيد الفذ ، هو التفسير الغالب ، وكثيرا مازعم مثل هذا التفسير لنفسه صفة العلمية ، على نحو مافعل ماركس .

ولا بد ، لنقل الاتجاه العلمي الى ميدان الظواهر الاجتماعية ، من هجر ذلك التفسير الواحدي ، من اهمال النظريات الواحدية الشاملة ، والاخذ بالتفسيرات « التفاعلية » ان صح التعبير ، نعني بالتفسيرات التي تعتبر الظواهر الاجتماعية نتيجة التفاعل بين جملة من العوامل المتعددة ، ليس بينها ما يحتل مقام السبب المنشيء الخلاق .

وآفة الواحدية هذه ، عندما تطبق على المبدأ القومي ،

انها تجر الى جملة من المزالق ، اهمها شيء من التاليه الخاطىء للمبدأ القومي ، تأليها يجعله قوة صارمة ، يستباح من اجلها كل شيء . كذلك من نتائج هذه الافة عندما تطبق على المبدأ الديمقراطي ان تنظر اليه كعامل حاسم ، كمبدأ ميتافيزيقي ، كفكرة مجردة غير مكسوة بلحم ودم ، وغير مصطبغة بصبغة الظروف الاخرى التي تصاحبها .

ومثل هذا الموقف الموحد ، هو الذي ينتهي في نهاية الامر الى تعصب ضيق ، حين يؤكد ان لا وجود الا لحقيقة واحدة ، وحين لا يدرك ان كل مبدأ قابل لان يعدل بنتيجة تفاعله مع غيره من المبادىء والنزعات .

ان القومية حين تغدو غاية في ذاتها ، وحين تنسى اهدافها الانسانية ، تقع في مثل هذا التفسير الواحدي ، وتغدو مطلقا رهيبا ، يخنق الانسان . والديمقراطية حين تأخذ بالتفسير الواحدي ، تنتهي الى تطرف معاد لجوهر الديموقراطية .

وما نريد ان نتابع هذا الحديث العام عن آفات النظرة المطلقة والنظرة الواحدية . والذي قادنا اليه ما قررنا من ان الصلة العميقة القائمة بين الديمقراطية والقومية من شأنها ان تحمي كلتيهما من مثل هذه التفسيرات المطلقة او الواحدية ، ومن شأنها بالتالي ان تجنب كلا منهما آفات الوقوع في شكلية ليست بذات مضمون ، وفي اطار لا يحفظ شيئا ويبيح كل شيء .

ونتيجة هذا كله ان القومية اذا ارادت ان تظل محكومة باهدافها الاصيلة ، التي هي اهداف انسانية تبتغي تفتيح الانسان الى اقصى مدى ممكن ضمن اطار العمل القومي المتآخي لا بد لها ان تتخذ من الديمقراطية وسيلة مثلى لتحقيق تلك الاهداف ودرء ووقاية ضد الوقوع في صورية الاطلاق وقسوته . وبالمثل ، لا تكون الديمقراطية مبدأ ذا دلالة ، قابلا لان يطبق ويعطي ثمرة معينة ، الا عندما يرتبط بحياة قومية معينة ، وحين يتكيف مع اهدافها ، ويسير في المسارب التي من شأنها ان تعمق تلك الاهداف .

— ٤ —

هذه الحقيقة الكبرى العامة ، تسري على القومية العربية كما تسري على غيرها ، وتجد في الحركة القومية العربية مجالا خصيبا لها .

فالقومية العربية تهدف ، ككل قومية سليمة ، الى تفتيح الانسان العربي ضمن الاطار القومي ، وترى في هذا الاطار الاناء الطبيعي لعطاء الفرد العربي وابداعه . وتنظر الى ارتباط المواطن العربي بحياته القومية ، كسياج يمكنه من تحقيق طاقاته الانسانية حتى مداها ، ويطلق لديه قوى الابداع حتى غايتها . وهي تنظر بعد هذا الى هذا الاطار القومي كدرج يقي الامة اخطار العدوان الخارجي ، ويمكنها بالتالي من الحفاظ على روحها الانسانية ، وعملها من اجل عالم متآخ متعاون . والامة العربية بوصفها امة ما تزال في بداية نهضتها الحديثة ، تنظر الى هذا الاطار القومي نظرتها الى اطار مفصل على قدها ، يقيها من اخطار

دار الاداب تقدم هذا الشهر

عاصفة على السكر !

بقلم

جان بول سارتر

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

* الكتاب الذي يصف نضال كوبا ورئيسها كاسترو ضد الاستعمار الاميركي
* الكتاب الذي يبدو فيه الاديب الوجودي الكبير نصيرا لكل بلد يسعى الى التحرر من السيطرة الاجنبية .
* الكتاب الذي ما يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط العالم السياسية

تسلط الدول الكبرى ، ويكون عملها له جزءاً من عملها الانساني الشامل في سبيل حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها ، ضمن عالم تتنازعه قوى متخاصمة كبرى ، وما يزال يسوده التحكم و لطغيان . وكلا المطلبين من مطالب القومية العربية يحتاج الى ان يتذرع بالديمقراطية من اجل تحقيق اهدافه . والمطلب الاول خاصة ، نعني تفتيح طاقات الانسان العربي وقوى الابداع لديه لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق الديمقراطية . ذلك ان المبدأ الاساسي من مبادىء الديمقراطية كما ذكرنا هو مبدأ احترام الانسان واتخاذه غايه لا وسيلة ، وافساح المجال بالتالي امام امكانياته وطاقاته كيما تتفتح وتزدهر . والجو الديمقراطي الذي يتجلى في الاعتراف للافراد بحرياتهم الاساسية ، هو السبيل الوحيد لتفتح الانسان وتقدمه وتجاوزه ذاته باستمرار . وليست حرية التعبير والتفكير والمناقشة الحرة في نهاية الامر سوى الادوات اللازمة لتحقيق انفتاح الفرد على الابداع والعطاء حتى نهايتهما .

واذا اردنا ان نمضي في الموضوع الى أعمق من هذا قلنا ان احترام الشخصيه الانسانيه ، الذي هو جوهر الديمقراطية ، يستلزم اولا وقبل كل شيء اللجوء في معاملة هذه الشخصيه الانسانيه الى الوسائل الانسانيه التي من شانها ان تحترمها وتفتحها من داخلها ، لا ان تنتهكها او تقسرها على الافكار والاراء قسراً . وتظل السمه الاساسية للاسلوب الديمقراطي الاعتماد على القناعة الداخلية العميقة للانسان ، وجعله سيد افكاره ، بدلا من اغتصابه فكريا ونفسيا وبدلا من السطو عليه بافكار مبيتة معدة سلفا . ومن الافات التي تتعرض لها الديمقراطية الحديثة ، حتى في اكثر الدول اخذا بالمبدأ الديمقراطي، اللجوء الى تقديم الاراء والافكار المبيتة الجاهزة ، وعدم افساح المجال امام الجهد الذاتي المستقل في اقتناء الافكار وهضمها . ان الاطعمة الفكرية الجاهزة التي يقسر عليها الناس دون ان يهضموها ، تكاد تغدو صفة ملازمه لعصرنا الحديث ، لاسيما بعد انتشار الوسائل الديمقراطية الواسعة ، نعني الصحافة والاذاعة والتلفزيون والطباعة . وتقديم افكار غير مطبوخة ، وعموميات غير واضحة ، ومحاولة غرسها في اذهان الناس ، عن طريق الوسائل الانفعالية ، من اهم الآفات التي تتعرض لها الديمقراطية في عصرنا ، والتي ينبغي ان تعمل على تجاوزها ان ارادت ان تحافظ على جوهرها وحقيقتها .

وهذه الناحية تقودنا الى استطراد قصير يردنا الى ما كنا نقرره منذ حين ، وهو ان الديمقراطية ، كاي مبدأ ، لا يجوز ان تفهم على انها مطلق لا يخضع لظروف الزمان والمكان . ذلك أن ظروف الحياة المعاصرة وانتشار ادوات النشر هذا الانتشار الهائل ، يخلق شروطاً جديدة لعمل الديمقراطية ، لم تكن قائمة من قبل ، لا بد ان تؤخذ بعين الاعتبار وان تفرض على الديمقراطية ، مشكلات جديدة وحلولا جديدة . . .

ولندع هذا ولنعد من جديد الى ما يترتب على الاخذ بالمبدأ الديمقراطي من احترام للشخصية الانسانية . ولنقل ان هذا الاحترام الذي هو أهم ما ينبغي ان تحرص عليه الديمقراطية ، هو الذي نقع عليه في تاريخنا العربي وفي تاريخنا الاسلامي . ولعل فكرة الكرامة الانسانية هي الفكرة التي استبقت لدى اجدادنا العرب مفهوم الديمقراطية الجديد . وكلنا يعلم ان على رأس القيم التي آمن بها العرب في جاهليتهم واسلامهم الحفاظ على كرامة الانسان . والذي يطالعنا في التاريخ العربي كله هو هذه الكرامة الانسانية التي تشمخ دوما وتشرئب . وفي معاملة العرب لرعاياهم وفي معاملتهم للدول التي فتحوها اكبر الدلائل على عمق ايمانهم بالشخصية الانسانية وبالكرامة الانسانية . وفي القرآن الكريم « ولقد كرمنا بني آدم » . وما تزال قولة عمر بن الخطاب التي وجهها الى عمرو بن العاص ترن في مسمع التاريخ . « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » . ومن الجدير بالذكر ان عمر بن الخطاب قال هذه الكلمة احتجاجا على معاملة « ابن الاكرمين » لرجل قبطي ، مما يشهد على عمق معنى الكرامة الانسانية لدى العرب ومما يبين انها ليست وقفا لديهم على رعاياهم ، بل هي تجاوز هؤلاء الرعايا الى كل انسان .

هذا الاحترام للكرامة الانسانية وللشخصية الانسانية الذي حرص عليه العرب في عصور تاريخهم ، يجعل من الديمقراطية اسلوبا خصيبا منتجا ، ويربطها مباشرة بفكرة التفتح القومي والابداع القومي . فتقديس الشخصية الانسانيه ، هو الوسيلة التي تفسح المجال امام الانسان كيما يعطي ويبدع ويتقدم ويتجاوز ذاته باستمرار . ولا سبيل الى تطوير الانسانية يوما بعد يوم، ورفعها من مستوى الشرور الى مستوى الخير ، الا عن طريق افساح المجال امام قوى الوعي الروحي كيما تتقدم وتتجاوز ذاتها وتعمل على خلق الانسان الجديد دوما .

ان امتلاك الفرد لآرائه وافكاره وامتلاكه لذاته واستقلاله الشخصي يعنيان معنى عميقا جدا بالقياس الى مشكلة الانسان جملة . فهما الوسيلتان الناجعتان اللتان تجعلان الوعي الانساني يتقدم ويتطور ويجاوز ذاته باستمرار عاملا على تجديد قيم المجتمع وعلى تجديد قيمه الانسانية . وبدون هذا المجال المفتوح امام الوعي الفكري، كيما يتقدم ويتجاوز ذاته ، لا يمكن ان يقوم في المجتمع اي تقدم ولا يمكن ان تكون فيه اي حركة الى امام . والانسانية تراوح في مكانها ، ان هي فرضت على الناس قيودا في الفكر والرأي ، وان هي حبست افكارهم ضمن اطار لا يتجاوزونه .

ان جوهر الوجود الانساني انه يصبو الى تجاوز ذاته باستمرار ، ومن صلب بنيه الوعي انه ينزع الى ان يتجدد ويناقش ذاته ويرقى الى آفاق اسمى فاسمى . ومثل هذه الصبوات التي نجدها في الوجود الانساني وفي الوعي الانساني ، هي امل الانسانية ، ولا بد لها كيما تأخذ مداها من ان تحترم ويفسح المجال بينها وبين الانطلاق .

ومن هنا كانت الديمقراطية هي الوسيلة المثلى لتفتح الانسان وتجاوزه لذاته وتطويره لمجتمعه وقيم هذا المجتمع . وبهذا ترتبط اعمق الارتباط بالقومية . فالقومية تفتيح للانسان وتطوير للمجتمع ولقيم المجتمع. وليست القومية مفهوما ساكنا جامدا ، وانما هي حركة دائبة متصلة من اجل تجديد بناء الوطن ضمن الكيان القومي . وهذا التجديد هو والديمقراطية صنوان .

— ٥ —

على ان احترام الشخصية الانسانية الذي هو صلب الديمقراطية وعصبها المفهوم ، لا يعني فقط هذا التمكين للوعي كيما يتفتح وينطلق ويجاوز ذاته ويتجه شطر القيم الروحية المثلى ، قيم الحق والخير والجمال . وانما يعني شيئا اخر لا ينفصل عن المعنى الاول ، هو ازالة العوائق الخارجية المادية التي تفل نشاط الفرد وتعطل فورة الابداع والعطاء لديه . فمن البدهي ان تفتح الانسان التفتح الكامل ، لا يمكن ان يتم اذا كان مثقلا بالقيود الاقتصادية التي تستعبده والتي تعطل قواه. وفي المجتمع العربي خاصة ، تثوي القوة الحقيقية الخلاقة للامة العربية، في تلك الكتلة الكبيرة من الجموع الشعبية الفقيرة المحرومة . وهذه القوى الخلاقة معطلة لدى هذه الجموع بسبب سوء احوالها الاقتصادية . والعبودية المادية التي تخضع لها الجمهرة الكبرى من ابناء الوطن العربي تجعل امكانيات الشعب العربي مهدورة وطاقاته مقتولة غير مستغلة . ولهذا فلا سبيل الى تحقيق العطاء القومي والابداع القومي الا عن طريق اسلوب ديمقراطي يهب للديمقراطية معنى التحرر من اثقال القيود الاجتماعية والاقتصادية ، كوسيلة لبلوغ المعنى الثاني للديمقراطية نعني تفتيح طاقات الفرد واطلاق قوى الابداع لديه ليعطي ويبدع في حرية وتجدد .

واذا اردنا تعبيرا اخر ، قلنا ان الشق الاول من الديمقراطية يتصل بما يدعى باسم الديمقراطية السياسية نعني تحقيق حرية الراي والكلام والاعتقاد ، وحكم الشعب بالشعب ، عن طريق الوسائل الديمقراطية المعروفة . اما الشق الثاني من الديمقراطية فيعني الديمقراطية الاجتماعية، اي تحقيق الفرص المتكافئة امام افراد الشعب وتحريرهم من عبوديتهم لاوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ليكونوا قادرين حقا على امتلاك حريتهم السياسية وتصريفها .

وما نريد ان نعود هنا الى حديث الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية . وما نريد ان نعدد التهم التي يوجهها الاخذون بالديمقراطية الاجتماعية الى المنتصرين للديمقراطية السياسية . ونكتفي بالقول ان هذا الصراع في اعماقه صراع زائف ، يتجاوزه تطور الاحداث . فالديمقراطية السياسية لا معنى لها بدون الديمقراطية الاجتماعية ما في ذلك شك ، والديمقراطية السياسية ، كما يقول اعداؤها ، تغدو وهما وتضليلا اذا لم يتحقق التحرر الاقتصادي والاجتماعي ، واذا كانت الوسائل التي يدعونها ديمقراطية ، من صحافة واذاعة ودعاوة وغيرها، ملكا للذين يتصرفون في اموال الناس فيتصرفون بالتالي في افكارهم ومعتقداتهم . غير ان هذا ينبغي الا يوهمنا ان الديمقراطية الاجتماعية هي الديمقراطية الوحيدة . فمن الصحيح ايضا ان الديمقراطية الاجتماعية تفقد معناها ان لم تهدف الى تحقيق الديمقراطية السياسية. وتحقيق الديمقراطية السياسية ، اي الحريات الفردية للمواطنين ، ينبغي ان يظل الهدف النهائي من الديمقراطية الاجتماعية ، وينبغي ان تظل هذه وسيلة من وسائل بلوغ الديمقراطية السياسية في شكلها الكامل السليم . وكما ان الديمقراطية السياسية تنقلب زيفا وخداعا اذا لم ترافقها الديمقراطية الاجتماعية ، كذلك تنقلب الديمقراطية الاجتماعية الى دكتاتورية ذميمة اذا نصبت نفسها كغاية تستباح في سبيلها الحريات السياسية والكرامة الشخصية، على نحو ما وقع في بعض البلدان الاشتراكية.

والهام في هذا التلازم بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية ، ان ندرك انه ينبغي ان يكون تلازما متواقتا ، يتم في وقت واحد . ومن تشويه الامور ان نقسم الزمن الى مراحل ، وان نزعم ان العمل للديمقراطية الاجتماعية ينبغي ان يسبق العمل الديمقراطية السياسية ، او العكس .

فلا سبيل الى تحقيق الديمقراطية السياسية الا بالوسائل الديمقراطية . والاعتداء على الديمقراطية ، ولو باسم مرحلة موقتة ، كما تفعل النظم المجموعية ، يعرض الديمقراطية في جوهرها للخطر والانحراف ، ويجعل الوصول اليها مطلبا موهوما . وفي هذا المجال يمكن ان نستعير تلك الكلمة التي قالها احد الكتاب عن الحضارة الانسانية فنطبقها على الديمقراطية نفسها فنقول « ان قوامها ان نعلم الناس ان يحكموا انفسهم بانفسهم عن طريق السماح لهم بأن يفعلوا ذلك ».

— ٦ —

واذا اردنا ان نلجأ الى لغة اخرى ، قلنا ان المشكلة الكبرى في الديمقراطية ، هي مشكلة التوفيق بين مبدأين غالبين من مبادىء الديمقراطية ، هما مبدأ الحرية من جهة ومبدأ المساواة من جهة ثانية . والتوفيق بين هذين

— التتمة على الصفحة ٥٠ —

المجموعة السيكولوجية

تعالج مشاكل الحياة النفسية على ضوء العلم

صدر منها :			ق.ل
تغلب على الخجل	ترجمة	عبد اللطيف شراره	١٠٠
سيطر على نفسك	«	« « «	١٠٠
تغلب على التشاؤم	«	« « «	١٠٠
سلطان الارادة	«	« « «	١٠٠
مفتاح الحظ	«	« « «	١٠٠
سحر الشخصية	«	« « «	١٠٠
كيف تكسب المال	«	لويس الحاج	١٠٠
تغلب على القلق	«	« «	١٠٠
تغلب على الخوف	«	« «	١٠٠
الايحاء الذاتي	«	بهيج شعبان	١٠٠
التنويم المغناطيسي	«	« «	٢٥٠
سعادتك بيدك	«	« «	١٥٠
طريق النجاح	«	« «	١٥٠

الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر

الديمقراطية وسيلة لتحقيق اهداف..

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

المبدأين مسألة واجهت دوما الحريصين على الديمقراطية. ولعل الحل الذي يعطى لهذه المسألة في بلد من البلدان هو الذي يحدد مبلغ قدرتها على تطبيق الديمقراطية تطبيقا صحيحا سليما .

ذلك ان مبدأ الحرية وحده لا يمكن ان يكون هدف الديمقراطية ، ولا بد لهذا المبدأ ليما ياخذ معناه ، ان يسير جنبا الى جنب مع المبدأ الثاني ، يعني المساواة . ونستطيع ان نقول ان مبدأ الحرية هو قوام الديمقراطية السياسية بينما مبدأ المساواة قوام الديمقراطية الاجتماعية. ومعنى هذا ان كلا المبدأين في نظرنا لا يصح بدون الاخر . فالحرية ينبغي ان تهدف في نهاية الامر الى تحرير الفرد من قيوده ومن جميع انواع العبودية التي يخضع لها، ومثل هذا لا يتم الا اذا تحقق مبدأ المساواة ، مبدأ تكافؤ الفرص . والمساواة تعني ان يتمتع جميع الافراد بحظ واحد من الفرص المتاحة لهم ، والا يحال بين فرد من الافراد وبين ان يستغل مواهبه كاملة وامكانياته حتى غايتها ، والا يكون التفاوت في الاوضاع الاقتصاديه والطبقية سببا في تفاوت في الفرص. ومثل هذه المساواة تلتقي التقاء طبيعيا مع الحريه، وبدونها لا يمكن ان تتحقق. ذلك ان الفرص المتكافئة تعني شيئين : الاول وجود حرية للمطالبة بها وتحقيقها تحقيقا صحيحا وتقويم للانحراف عنها . والثاني وجود الجو اللازم لتفتح الفرد ، بحيث لا تغل امكانياته بسبب سوء اوضاعه المادية . فالذي يغل الافراد ويحول بينهم وبين كامل تفتحهم ما هو الاوضاع المادية فحسب ، كما قد يخيل ، وانما هو اولا وقبل ذلك، الاوضاع الروحية الفكرية في مجتمع من المجتمعات . والعبودية الفكرية لا تقل في نهاية الامر عن العبودية الاقتصادية والمادية . بل ان التحرر من العبودية المادية، كما قلنا ونقول ، لا يهدف في خاتمة المطاف الا التحرر الفكري والروحي الكامل ، وما هو بالتالي غاية في ذاته. انه وسيلة لتفتيح الانسان ، لبلوغ اعلى مراتب الوعي الانساني . ومثل هذا الارتقاء الى الحرية الفكرية والروحية لا يتوافر الا بتوافر المبدأ الاول من مبادىء الديمقراطية. نعني مبدأ الحرية عامة .

على ان قولنا بقيام وحدة تامة بين الحرية والمساواة، يجعلنا ندرك ان لكل منهما حدودا . فالحرية محدودة بمطالب المساواة ، والمساواة محدودة بمطالب الحرية . والميزان الذي يحكم على سلامة تطبيق الديمقراطية هو مدى التوفيق بين المطلبين ، ومدى الاتساق والانسجام بينهما .

وما دمنا امام مؤتمر تربوي ، يجدر بنا ان نأتي بمثال على اهمية هذا التوفيق ننتزعه من قصة التعليم في بريطانيا . فكلنا يعلم ان مشكلة التعليم في بريطانيا هي اولا وقبل كل شيء مشكلة التوفيق بين هذين المطلبين الغاليين من مطالب الديمقراطية ، نعني الحرية في التعليم ثم تكافؤ الفرص التعليمية ، ذلك ان التعليم في بريطانيا قام منذ القرون الوسطى على ائتلاف عدد من المدارس الخاصة الشهيرة ، ان مثل مدرسة « ايتون » Eton او « وشسستر » Winchester او « هارو » Harrow او غيرها . وتتسم هذه المدارس برقي مستواها التعليمي والخلقي ، ولهذا كانت المؤئل الذي يتخرج منه دوما قادة الشعب الانكليزي في مختلف المجالات . سوى ان ارتفاع تكاليف هذه المدارس جعلها وقفا على الطبقة الغنيه . اما الطبقه الفقيرة فما كانت تستطيع ان ترسل اولادها اليها، وكانت تلجا الى المدارس الحكوميه التي عجزت دونها في المستوى . وقد كانت مهمه المصلحين الانكليز ايجاد حل لهذه المعضلة . لقد كانوا حريصين على بقاء هذه المدارس الخاصه ، اخذا بمبدأ الحريه في التعليم ، وحفاظا على مستوى هذه المدارس الرفيع ، لما كانوا في الوقت نفسه، ولاسيما بعد الثورات الصناعيه الحديثة ، حريصين على فتح مجال التعليم المتكافىء امام الطبقة الفقيرة عامه وطبقه العمال خاصة . وبدت المشكلة حادة عنيفه قبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها . فاخذنا نقرأ كتبا ككتاب «لوندس Londes » الذي يحمل عنوان « الثورة الاجتماعيه صامتة » وككتاب « فيكرز Vickens » الذي يحمل عنوان « التربيه من اجل مجتمع حر » . وفي مثل هذه الكتب اخذت تطالعنا الدعوة الى تحقيق المساواة في الفرص التعليمية ، والبحث في اثر المدارس الثانوية خاصه في تنظيم التوازن الطبقي في المجتمع الانكليزي . وكانت قوانين التعليم التي صدرت بعد ذلك ، عام ١٩٤٤، بمثابة محاولة لايجاد حل لهذه المشكلة . وجوهر هذا الحل الذي انتهى اليه المربون ، من اجل التوفيق بين مطلب الحرية ومطلب المساواة في التعليم ، الاخذ بتوسيع المدارس الحكومية وتحسينها بحيث تضاهي في نهاية الامر المدارس الخاصة . وبذلك تتاح للطبقة الفقيرة فرصة الدراسة المجانية في مدارس لا تقل شأنا عن مدارس الخاصة ، كما يفسح المجال امام الخاصة لاختيار مدارس الخاصة عندما يفضلون ذلك . هذا بالاضافة الى الزام كل مدرسة خاصة ان تخصص عددا من المقاعد المجانية للطلاب الفقراء المتفوقين الذين يفدون اليها من المدارس الحكومية العامة.

ولسنا ههنا في معرض الحديث المفصل عن هذه المشكلة التي واجهت التعليم في بريطانيا . وقد اكتفينا بهذا العرض الموجز رغبة في تقديم مثال بسيط على اهمية التوفيق بين مبدأي الحرية والمساواة في مجال التعليم وغيره .

وواضح ان هذا التوفيق الذي نعده جوهر العمل الديمقراطي ، لا يجوز ان يكون على حساب اي واحد من المبدأين . وواضح ان التوقت في هذا التوفيق امر ضروري ، فلا يجوز ان يؤخذ بالمبدأ الاول الى حين ، ظنا انه سيؤدي فيما بعد الى المبدأ الثاني او ان يؤخذ بالمبدأ الثاني الى حين ، اعتقادا منا بان تعطيل المبدأ الاول لا بد منه من اجل العود اليه عودا سليما فيما بعد .

وواضح ايضا ان هذا التوفيق يرتبط بظروف المجتمع واوضاعه العامة ، وانه يأخذ في كل مجتمع بالتالي الشكل الذي يتلاءم معه . وقد قلنا ونقول ان الديمقراطية لا يجوز ان تفهم كمطلق وان الشكل الذي تتخذه يتحدد اخيرا ببنية المجتمع الذي تطبق فيه . غير ان هذا الارتباط بين تطبيق الديمقراطية (على اساس التوفيق بين مبدأي الحرية والمساواة) ، وبين ظروف

المجتمع ، ينبغي ان يفهم ايضا على حقيقته ، ولا يجوز ان يتخذ حجة للتطويح بالديمقراطيه . فنسبه الديمقراطيه الى الزمان والمكان لا يعني التلاعب بها والاحتيال عليها باسم ظروف الزمان والمكان . والاصل في هذا الارتباط بين الديمقراطيه وبين ظروف تطبيقها ان يكون السعي دائما للوصول الى اكبر حد ممكن من الديمقراطيه ضمن تلك الظروف . وما نعنيه بوجود ظروف خاصة ما هو وجود الظروف التي تحد من المبدا ، وانما هو وجود ظروف يأخذ المبدا ضمنها شكلا جديدا . وبدهي ان الظروف التي كانت تطبق فيها الديمقراطيه في مثل الولايات المتحدة في بدايه استقلالها ايام جيفرسن ، هي غير الظروف التي تواجه الديمقراطيه اليوم بعد تعقد الحياه الحديثة وبعد انتشار الصناعه الكبرى وتطور النظم الاجتماعية . واكبر محنه تتعرض لها الديمقراطية محاولة النظرة اليها في ظروفنا الحاضرة من خلال الافق الذي كان سائدا في ظروف مباينة تماما . وفيما يتصل بالحرية والمساواة مثلا ، كان الظن لدى كثير من المؤمنين بالديمقراطية في بداية الامر ان ثمة انسجاما ذاتيا بينهما . في حين ان تطور الحياه الحديثة قد بين ان هذا الانسجام لا يقوم من تلقاء ذاته ، وعلينا ان نناضل في سبيله .

وايا كانت الحال ، فالمهم في عملية التوفيق بين مطالب الحرية والمساواة وبين ظروف المجتمع ، ان ندرك ان هذا التوفيق ينبغي ان يكون دوما في اتجاه الديمقراطية لا في اتجاه القضاء عليها باسم الظروف . المهم ان ندرك حقيقة كبرى لا يكون للديمقراطية بدونها معنى ، وهي ان ان مشكله الديمقراطية مشكلة خلقيه ، وانها قضيه ايمان خلقي . ولهذا فتطبيقها ايضا ينبغي ان يكون تطبيقا خلقيا ، اي تطبيقا مخلصا صادقا .

— ٧ —

هذه الحقائق التي نقررها بالنسبة الى الديمقراطية عامة ، تصدق على الديمقراطيه في بلادنا العربيه . ومن خلالها ندرك من جديد الصله بين القومية العربيه وبين الديمقراطية . ذلك ان القومية العربيه حين تضع اهدافها تجعل في رأسها هدفين كبيرين متلازمين ومتأخذين الاول تحقيق الحضارة العربيه المنشودة عن طريق تفتيح إمكانيات الانسان العربي ، والثاني تحقيق سعاده المواطن العربي عن طريق افساح المجال امام استخراج ثروات العربي المادية والبشرية ، اي عن طريق الاشتراكيه . ومعنى هذا ان القومية العربية تهدف اولا الى تحرير الفرد روحيا واطلاق قوى الابداع لديه ، وتهدف ثانيا الى تحرير الفرد ماديا . اما التحرير الاول فيكون عن طريق الاخذ بمبدأ الحرية خاصة ، واما التحرير الثاني فيكون عن طريق الاخذ بمبدأ المساواة خاصة ، مع التوكيد دوما على ان المبدأين متآخذان لا ينفصل احدهما عن الاخر . واذا شئنا ، تبسيطا للامور ، ان نجمع المبدأين في واحد قلنا ان هدف القومية العربية الكبير بناء حضارة عربية انسانية نامية ، وهذا البناء يتوسل لبلوغ اهدافه بالاشتراكية . والاشتراكية تعني تحرير الجموع الغفيرة المحرومة من ابناء الوطن العربي من قيود اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية السيئة ، تحريرا لا يهدف فقط الى رفع مستواها المادي ، بل يجعل هذا المستوى المادي وسيلة لرفع مستواها الانساني والروحي . ومعنى هذا ان الاشتراكية التي هي وسيله كبرى لتحقيق اهداف القومية العربية ترتبط في أعماقها بالديمقراطيه وتشتمل على المعنيين الكبيرين من معانيها . انها تشتمل على المساواه ما في ذلك شك ، ولكنها تتخذ هذه المساواه اداة للتحرير الفكري والروحي ، لاطلاق قوى الابداع لدى الفرد ، اي تجعلها وثيقة الارتباط بالحريه . وقد غدا من البدهي ان الاشتراكية في نظر القوميه العربيه ليست مقصوده لذاتها ، وليست وسيلة لرفع مستوى المعيشة فحسب وليست قضية معدة كما يقولون ، وانما هي وسيلة لاطلاق قوى الابداع العربية الثاوية في الجموع الغفيرة من ابناء الشعب العربي . واساس فكرة المجتمع الاشتراكي ، الاعتقاد ان قوى الابداع الكبرى لدى الامه العربية ثاوية لدى هذا الجمهور الكبير من الشعب المحروم . ولهذا فلا سبيل إلى بناء الحضارة العربية وتفتيق الابداع العربي ، الا عن طريق انقاذ هذه الجموع من اغلالها وافساح المجال بينها وبين ان تعطي وتمنح لوطنها وللانسانية . ومعنى هذا ان مطلب الاشتراكية في نظر القومية العربية مطلب انساني بالدرجة الاولى ، هدفه النهائي تحرير الانسان واطلاق قواه المبدعة ، ومثل ذلك لا يتم الا عن طريق الحرية .

— ٨ —

وبعد ، لئن جعلنا هدف القومية العربية الكبير بناء حضارة عربية انسانية نامية ، فلا ينسينا هذا ان مثل هذا البناء لا يتم عن طريق الاشتراكية وحدها ، بل لا بد فيه من جوهره واساسه ، نعني الوحدة العربية . فالوحدة العربية بالبداهة هي جوهر القومية العربية : واي بناء للحضارة العربية لا يكون الا ضمنها ومن خلالها . فالحضارة العربية حضارة متكاملة ، والوثبة العربية المنشودة لا تكون كاملة الا عندما ترجع الاوصال الى الاوصال ويعود الوطن العربي الى سابق وحدته ويلغي ذاته من جديد بعد سابق تمزق وشتات . والعرب لن يلفوا ذاتهم ولن يجدوا حضارتهم الا من جسدهم كاملا ، نعني الوطن العربي الاكبر .

وما دام الامر كذلك . فالديمقراطية ههنا تلعب دورها الكبير . فكلنا يعلم ان العمل للوحدة العربية هو امنية الجمهرة الكبرى من ابناء الامة العربية ، وهو ارادة الشعب في كتلته الكبيرة ، غير اننا كلنا نعلم في الوقت نفسه ان

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب

هذه الامنية تحول دونها جملة من العوائق ، وتقوم في وجهها ضروب من العداء والاحتراب . وما يزال اعداء التومية في خارجها وداخلها ، يكيدون لها ويحاولون الحيلولة دون بلوغها مداها. والكيد للقومية العربية لا يأخذ فقط شكل الكيد السياسي ، وانما يأخذ خاصة شكل الكيد الفكري . فعن طريق تشويه الافكار وتسميمها ، وعن طريق اثارة الشكوك في القومية العربية والوحده العربية ، يحاول اعداء الوحدة ان يضعفوا من وثبتها ويؤخروا يوم تحققها . ومعنى هذا ان معركة الوحدة العربية معركة فكرية بالدرجة الاولى ، الى جانب كونها معركة سياسية . ولا يأخذ العمل لهذه الوحدة شكله الحي الفعال الا اذا نشطت الافكار لتوكيده وتثبيته . ومثل هذا النشاط يستلزم الحرية الفكرية حتى اقصاها. وتقييد الحرية الفكرية في هذا المجال لا يفيد في نهاية الامر سوى اعداء القومية العربية وخصومها . ان مؤامراتهم ودسائسهم وهمساتهم المخربة هي التي تعشش وتفرخ في جو لا يفسح المجال لتبادل الاراء في النور ، ويدع الفرصة كبيرة للعمل في الظلام. والفكرة الصادقة المؤمنة ، تدرك ان النصر لها في معركة تجري في وضح النهار ، وتصطرع فيها الافكار . لاسيما عندما تكون هذه الفكرة فكرة الجماهير الغفيرة ، فكرة القوى الحية في المجتمع ، التي تشتد حياة بمقدار ما يتاح لها من حرية .

ان القوة الكبرى التي تعتمد عليها فكرة الوحدة العربية ، نعني قوة الشعب بجماهيره الغفيرة ، تجعل من طبيعة الامور ان يجري العمل للوحدة في جو ديمقراطي . فالوحدة العربيه ارادة الكثرة الغالبه وايمانها. وهذا الايمان ينبغي ان ينطلق وينمو ويتوالد كي يتغلب في نهاية الامر على البقية الباقية من الافكار الضالة . ونمو هذا الايمان وتوالده يكون في جو ديمقراطي بل يكون بفضل معارضه الخصوم على ان تكون هذه المعارضة في وضح النهار . ان الجو الديمقراطي هو الذي يقوى في نهاية الامر على كسب المعركه ضد الاستعمار واعوانه في كل بلد عربي . ولهذا نجد هذا الاستعمار واعوانه حذرين من اطلاق الحرية ، يتذرعون ضد افكار الوحدة التي تعمر في القلوب بتعييد الحريات الديمقراطيه .

ان اي فكرة مهما يكن حظها من القوة ، تحتاج دوما الى مزيد من التنمية والاغناء . والفكره التي تراوح في مكانها تتجمد وتفقد عناصر الحياة اللازمه لبقائها . واغتناء الفكرة يكون اولا واخيرا ضمن الجو الديمقراطي.

— ٩ —

ولا حاجة بعد هذا كله الى القول ان الديمقراطية اللازمه لقوميه العربية اللازمة لاهدافها ، ينبغي ان تنبت في جميع مظاهر الحياة العربية ، وان تكون النسغ المغذي لكل جانب من جوانبها . ان عليها ان تداخل الحياه السياسية كما تداخل الحياة الاجتماعية ، وان تسيطر على علائق الناس جميعها ضمن المجتمع العربي.

ذلك ان الديمقراطية في بلد من البلدان لا تقاس بمبادئها المكتوبة في واجهة الدساتير والقوانين ، وانما تقاس بالعلاقات الفعليه القائمة التي تربط بين الناس ، وتعبر بطراز السلوك اليومي الذي يذيع بينهم . والمسالة ليست مسالة القيم — الاصنام — المنقوشة في الاسفار والنصوص الدستورية ، وانما هي مسالة المعنى الذي تاخذه هذه القيم حين تعبر عن نفسها على شكل علائق انسانية في داخل المجتمع وخارجه .

وما دام الامر اذن في الديمقراطية امر التطبيق الفعلي الذي يدخل جميع انماط الحياة الاجتماعية والسلوك الاجتماعي ، كان لزاما علينا ان نشير الى اهمية تغلغل الروح الديمقراطية في نظم التربية والتعليم . ولئن اخترنا الحديث عن مداخلة الديمقراطية لنظم التربية وقدمنا هذا الحديث على غيره ، فما ذلك الا لسببين اساسيين:

الاول اننا امام مؤتمر يعنى ببيان الاسس الفلسفية التربية العربية . والثاني ان نظم التربية والتعليم تظل السداة الكبرى التي تتقوم بها سائر مظاهر الحياة الاجتماعية وتتاثر بها جميع النظم في امة من الامم . ومن نفل القول ان نقطة الاستناد الاساسية في بناء المجتمع هي نظم التربية والتعليم ، وان تغيير ما في انظمة الناس يكون اولا وقبل كل شيء بتغيير طراز التربية التي تقدم لهم . فالتربية هي اداة تطوير المجتمع، وهي الوسيلة الاولى لتطبيق اهدافه التي يرسمها لنفسه. وما العمل التربوي في نهاية الامر الا تلك المحاولة لتحقيق مصير الانسان وغاية الوجود الانساني على نحو ما يتصورها مجتمع من المجتمعات . والمهمة الاولى

ظهر حديثاً كتاب

الجامع في التربية العامة

تاليف أوبير

ترجمة الدكتور عبدالله عبدالدائم

•

أعمق كتاب في فلسفة التربية وأصولها

•

يطلب من جميع المكتبات

والاخيرة للتربية هي ان تقود الانسان الى غايته وهدفه الحقيقي كانسان ، ان تجره الى ما يصبو الى ان يكونه .

على ان ايثار التربية بهذا الحديث عن صلة الديمقراطية بها ، يعني شيئا اعمق من هذا ، ينقلنا توا الى صلب الموضوع الذي كنا بصدده . نعني الصلة بين الديمقراطية والحياة القومية . ذلك اننا حددنا هدفا للحياة القومية الوصول الى بناء الحضارة العربية الناميـة عن طريق تفتيح الانسان العربي تفتيحا كاملا . ومهمة التفتيح هذه هي مهمة التربية قبل اي شيء آخر . والاتفاق تام ههنا بين مهمة الحياة القومية وبين التربية . فالتربية الحقة هي التي تحقق الكائن في نهاية الامر اسمى درجات التفتح الانساني واقصى مراتب الوعي الروحي . وغاية التربية ليست في تفتيح القوى الطبيعية لدى الكائن على نحو ما يرثها ويجدها معطاة له من قبل نوعه ، ولا هي في دمج الكائن مع حياة مجتمعة وتراث مجتمعة . ان غايتها الحقة هي ان تعتمد على طبيعته النوعية البيولوجية وعلى اثر المجتمع وتراثه من اجل الرقي بالكائن في نهاية الامر الى شأو يجاوز الطبيعة ويجاوز المجتمع ، هو شأو التفتح الروحي ، التفتح على القيم المثلى ، على الحق والخير والجمال . ان مهمتها ان تتكيء على الطبيعة والمجتمع ، لترد الكائن بعد ذلك الى ذاته ، الى ما يصبو اليه كانسان . ومثل هذه الاوبة الى الذات التي هي هدف التربية لا تتم الا اذا ساعدت التربية الكائن على ان يملك موقفا مستقلا ونظرة مستقلة ، عن طريقها يسيطر على الاشياء طبيعية كانت او اجتماعية .

وهكذا يلتقي العمل التربوي باعمق اعماق الديمقراطية . انه واياها يهدفان الى خلق الوعي الذي يقوم به الكائن بنفسه . انه بقول موجز ، يؤمن بالوسيلة الكبرى لتكوين الانسان ، نعني الحرية . فالحرية ههنا تعني تحرير الكائن تحريرا حقيقيا ، وذلك عن طريق امتلاكه لذاته وامتلاكه لافكاره . ان كل وعي انساني يصبو الى ان يملك نفسه امتلاكا كاملا . والتربية تقدم العون للكائن كيما يصل الى هذه الصبوة ، كيما يكون فعلا سيد افكاره وما يؤمن به . انها تأخذ بيده لا لتقدم له زادا معطى ، ومعرفة مبيتة ، ولكن لتجعله قادرا على اقتناص المعرفة بنفسه واتخاذ المواقف بقوته الذاتية وتقويم الاشياء عن طريق النظرة الخاصة التي قرت لديه . ان التربية الحقة ليست طعما نقدمه للاخرين وانما هي عون نجعلهم عن طريقه يحققون صبوات وجودهم الحقيقية . انها لا تطبع فيهم ، الا ما يملكون الرغبة في امتلاكه . وهدفها الاخير تحقيق استقلالهم وتفتيق ذواتهم ، بحيث تكون هي الخالقة لقيمها وافكارها ومواقفها .

وبين ان مثل هذه الاهداف تلتقي بالاهداف الديمقراطية . فلقد رأينا كيف ان اهم عنصر في الديمقراطية عنصر احترام الشخصية الانسانية بحيث تتخذ غاية لا وسيلة ، وبحيث نبعدها عن كل قسر وعن كل راي مفروض ونثير لديها القدرة على التفكير في الاشياء على عاتقها وبجهدها الذاتي .

وبدهي ان هذه الروح الديمقراطية ينبغي ان تداخل التربية في جميع مراحلها وفي شتى تفصيلاتها ، اذا ارادت ان تكون تربية حقة . ونتائج مثل هذه الروح الديمقراطية في ميدان العمل التربوي اوسع من ان تحصى . ان صداها ينعكس على المناهج وطرائق التدريس واساليب النشاط المدرسي . بل هو ينعكس على تنظيم التعليم جملة . ومن اهم النتائج التي تترتب عليها . العناية بالكشف عن قابليات المتعلمين وتوجيههم شطر الدراسات التي تلائم هذه القابليات .

وجدير بالتأمل ان هذه الصلة بين التربية والديمقراطية خير مثال يمكن ان يضرب ليبين أهمية العناية بالاساس الفلسفي للتربية . ان وجه الامور في التربية والتعليم تخضع لانقلاب شامل حين نحدد لها هذا الهدف الديمقراطي وحين نربط بين هذا الهدف الديمقراطي وبين اهدافه القومية العربية . ان اتخاذ المتعلم غاية لا وسيلة ، وجعل الهدف من التعليم تفتيح الانسان على الحرية ، على التفكير الذاتي ، امور تقلب التعليم رأسا على عقب ، وتفرض طائفة من النتائج في طرائق التدريس والمناهج والكتب والامتحانات وغيرها . ان فلسفة التربية تأخذ كامل معناها ضمن هذا الجو . انها تغدو بحق فلسفة الانسان ، البحث في مصيره وغايته ، بغية تكييف كل شيء في التربية وفق ذلك المصير وتلك الغاية . وعندما نؤكد أن غاية التربية الوصول بالكائن الى ذروة الوعي المستقل لذاته وجوهر وجوده ، فنحن نطلق في الواقع مبدأ

دار الاداب تقدم

سلسلة الجوائز العالمية

أروع الروايات التي فازت بجوائز عالمية وترجمت الى عدة لغات ، ولا غنى للقارىء العربي ، اذا اراد ان يستكمل ثقافته الادبية ، من الاطلاع عليها .

ويسر « دار الاداب » في بيروت ان تضطلع بهذه المهمة ، فتقدم قريبا جدا ، وبالتتالي ، حلقات هذه السلسلة ، مترجمة الى العربية ترجمة دقيقة امينة باخراج انيق .

ترقبوا الاعلان عنها

في اعدادنا القادمة

كبيرا من شأنه أن يحدث اضخم الاثار في عملية التربية. اننا بذلك ننأى عن تلك الاهداف الجزئية والضيقة التي تعين للتربية ، حين يقال بان هدفها تكوين المواطن الصالح او تكوين الانسان كما يريد المجتمع ان يكون . اننا نبين اذ ذاك ان الاندماج مع المجتمع امر محتوم لا بد منه ، وخطوة ضرورية في كل تربية ولكن شريطة الا يكون هذا الاندماج مقصودا لذاته ، وان يهدف في نهاية الامر الى تحرير الفرد حتى من قيود المجتمع ، ليرقى بم الى وعي الامور وعيا جيدا مستقلا يأخذه على عاتقه وعلى حسابه. ان المجتمع بالقياس الى التربية الحقة مرحلة ، ومرحلة لازمة . غير انه ليس غاية المطاف . وقوى التجديد في المجتمع لا تخلق الا يوم يصبح الفرد على خط من الوعي الروحي والاستقلال الفكري يمكنه من اعادة النظر في قيم مجتمعه ، ليقبل منها ما يقبل حرا مستقلا ، ليغير منها ما يغير حرا مستقلا .

ان المجتمع لا يتجدد الا عن طريق هذه القوى الروحية الفكرية الجديدة التي تخلق لدى افراده عن طريق التربية . وهذه القوى الروحية الجديدة هي ابنة الاستقلال ابنة الحرية .

من هنا نرى ان ربط التربية بالمبدأ الديمقراطي ، يجعلها تربية خلاقة ، ويؤدي الى توفيق عميق بين مطالب الاندماج مع المجتمع ومطالب التجدد الاجتماعي والتقدم الانساني . فالتربية الديمقراطية لا تكون الا بدمج الكائن في حياة الزمرة الاجتماعية التي ينتسب اليها وفي تراث هذه الزمرة ، ولكنها لا تكون في الوقت نفسه الا برفع الفرد الى مستوى يستطيع ان يطل منه على حياة الزمرة اطلالة من ملك وعيا مستقلا ، وتقويما شخصيا للاشياء، قادرا على الحكم عليها حكما حرا جديدا . ان الاندماج الحق مع مطالب المجتمع يكون بتجاوزه ، بتجاوز الاتباع الجامد ، الى الابداع المستقل والتفكير الحر .

— ١٠ —

وبعد ان مهمة القومية العربية مهمة مبدعة خلاقة . ان رسالتها الاولى خلق حضارة مبدعة . وتكوين هذه الحضارة المبدعة تفترض اولا وقبل كل شيء ، العناية بالعنصر الانساني وتفتيحه وافساح المجال له كيما يعطي كامل مداه ويطلق شامل طاقاته .

وهذه العناية بالعنصر الانساني تتطلب اول ما تتطلب جوا ديمقراطيا ييسر له التفتح والازدهار : فالجو الديمقراطي هو الرئة التي تتنفس منها قوى الابداع . وهذا الجو الديمقراطي يعني امرين متلازمين . يعني ابعاد العوائق المادية التي تحول بين الفرد وبين عطائه ، ويعني تحقيق اطار من الحرية في مجال التفكير والتعبير والاعتقاد، يمكن للتفتح ويفسح المجال الدائم للتقدم وتجاوز الذات. والتربية دون شك هي خير اطار ملائم لاشاعة هذا الجو . فهي المهاد الذي يتم فيه خلق الاساس المكين للديمقراطية، عن طريق تربية الكائن تربية مستقلة ، فيها احترام لذاته، وفيها تفتيح له من داخل ، لا قسر من خارج.

وهكذا تجد التربية امامها اساسين متينين ، يقوم التلازم بينهما، هما الاساس الديمقراطي والاساس القومي. انها في نهاية الامر تلغي نفسها عند نقطة الالتقاء بين ديمقراطية تهدف الى خلق حياة قومية سليمة ، وبين قومية تتخذ الديمقراطية وسيلة لبلوغ اهدافها الاساسية، نعني تفتيح الانسان العربي واطلاق طاقاته . انها تضع لنفسها غاية كبرى هي تفتيح انسانية الانسان العربي ضمن اطاره القومي وعن طريق هذا الاطار . وعند ذلك لا تأخذها نظرة قومية ضيقة تجعلها تتخذ القومية مجرد شكل صارم قاس تستباح في سبيله حتى حقوق الانسان وحرياته الاصيلة ، كما لا تأخذها نظرة ديمقراطية عائمة ليست بذات حدود ، تجعل من الحرية مطلقا لا صلة له بشيء ولا شأن له بالظروف القومية التي تجتازها الامة .

انها تقف وقفة سليمة ، حين تتخذ من تكوين الانسان من اجل حياته القومية وسيلة لتفتيح انسانيته ووعيه الانساني ، وسيلة لتحرره لا لعبوديته . وبذلك تلتقي التقاء خصيبا مع المعنى الاول والاخير للقومية العربية ، نعني العمل على تفتيح الانسان العربي ورفعه الى اعلى مراتب الوعي الانسان والابداع الحضاري.

ان تأليه المجتمع ، سواء كان مجتمعا قوميا ، او غير قومي ، آفة كبرى وقعت فيها النظريات المجموعية . وهو الذي قاد في نهاية الامر الى الاخذ بالاساليب التحكمية في حكم الافراد . والفكرة التي اطلقها « هيجل » وتلقفها العديد من الحكام والمفكرين بعد ذلك وعلى رأسهم ماركس اتت اسوأ الثمرات في تاريخ الانسانية وجرت كثيرا من المآسي . ان قوامها جعل الفرد آلة ضمن الكيان الكبير ، كيان المجتمع والدولة ، وانكار وجوده كذات مستقلة.

والنظر الى المجتمع كحامل لفكرة التاريخ ممثل لها ، والنظر الى الفرد كذرة ما عليها الا ان تنساق مع منطق التاريخ . لقد كانت رد فعل على النظرة الفردية ، وكانت ككل رد فعل ، فعالية مفرطة . والنظرة الديمقراطية السليمة هي النظرة التي تجعل الفرد جزءا من المجموع ، دون ان تنشيء اهداف الفرد ومطالب وجوده الانساني. انها تجعل اندماج الفرد مع المجتمع كما قلنا ونقول مشروطا بمقدار الحرية التي تمنح له كيما يتجاوز هذا المجتمع ويخلقه خلقا جديداً .

ان الدرس الاكبر الذي تعلمنا اياه الديمقراطية هو ان العمل لها كفاح ونضال من اجل التوسع المتصل في تطبيق الوسائل الديمقراطية وطرقها الاساسية ، نعني المشاورة والاقناع والمفاوضة والتواصل والتعاون الفكري والعنصر الخصيب الذي تستمده القومية العربية من الايمان الديمقراطي ، هو الاعتقاد الجازم بان تفتح القومية العربية تفتحا يؤدي الى خلق الحضارة العربية المنشودة ، رهين بمقدار قدرتها على اشاعة اكبر حظ ممكن من الروح الديمقراطية ضمن ظروف المجتمع العربي الراهنة ، ان شد الواقع العربي شطر الديمقراطية وتطويره يوما بعد يوم ليكون منفتحا لجرعات جديدة منها ، عن طريق اصطناع الوسائل الديمقراطية نفسها ، هي المهمة الشاقة الصبور الملقاة على عاتقنا ، من اجل بلوغ الاهداف الحقيقة لقوميتنا العربية ، نعني بناء الحضارة العربية الموحدة المبدعة (*).

عبدالله عبد الدائم

(*) بحث قدم الى حلقة دراسة أسس التربية في العالم العربي التي انعقدت في القاهرة في الشهر الماضي .